حرب فلسطين ، وقد كنت طفلا . وتكتشف أن أي عربي ترك بلاده في تلك الفترة ، وعاد اليها متسللا ، قد فقد حقه في الجنسية .

تيأس من جواز سفر ، وتطلب جواز مرور . تكتشف أنك لست مقيما في اسرائيل ، لانك لا تحمل شهادة اقامة . تحسب الامر نكتة فتسرع لترويها لصديقك المحامي : « لا أنا مواطن هنا — ولا أنا مقيم . اذن ، أين أنا ومن أنا » . تفاجأ بأن القانون معهم ، وبأنه يترتب عليك أن تبرهن وجودك . تقول لوزارة الداخلية : أنا موجود أم غائب ؟ أعطوني خبيرا في الفلسفة لاثبت له أنني موجود .

ثم تدرك أنك موجود فلسفيا ، وغائب قانونيا .

تفكر بالقانون . ما أشد براءتنا حين نظن ان القانون وعاء للعدل والحق . القانون هنا وعاء لرغبة الحاكم ، أو بدلة يفصلها على قياسه . وأنا موجود في هذه البلاد قبل وجود الدولة التي تنفي وجودي . وترى مرة اخرى ان الحق أمنية تقترب من الوهم اذا ابتعد عن سند القوة ، وان القوة تحول الوهم الى واقع . وتبتسم للقانون الذي يمنح كل يهودي في العالم حق الجنسية الاسرائيلية .

وتسعى من جديد . أمرك لله وللقانون . تحصل على شهادة تثبت أنك موجود ، وتحصل على جواز مرور . ولكن من أين تمر ؟ أنت مقيم في حيفا ، والمطار قرب تل أبيب . وتسأل الشرطة تصريحا للسفر من حيفا الى المطار فترفض . يتدخل المحامي وأعضاء برلمان ، ولكن الشرطة ترفض . ثم تظن أنك أكثر خبثا منهم ودهاء ، فتغير طريق مرورك ، وتقرر السفر عن طريق ميناء حيفا على اعتبار أنك تملك حق الوصول الى الميناء . تبتهج لذكائك . تشتري تذكرة ، وتعبر قسم مراقبة الجوازات والصحة والجمارك ولا يعترضك أحد . وقرب السفينة يلقون القبض عليك ، ويقدمونك الى المحاكمة . وما زلت مصرا على ان القانون معك هذه المرة .

وتكتشف في المحكمة ان ميناء حيفا جزء من دولة اسرائيل وليس جزءا من مدينة حيفا ، ويذكرونك بأنك محظور من الوجود في أية منطقة من دولة اسرائيل خارج حيفا . والميناء — في القانون — خارج حيفا . وتدان . . .

تقول لهم : أريد أن أدلي باعتراف خطير ما دمت قد فهمت القانون : يا سادة ! أنا أستحم في البحر كل يوم ، والبحر تابع لدولة اسرائيل وليس تابعا لمدينة حيفا ، وأنا لا احمل تصريحا لدخول البحر .

وعندي اعتراف آخر : أنا استمتع بالطقس في مدينة حيفا . والطقس تابع لدولة اسرائيل وليس تابعا لحيفا . وانا لا احمل تصريحا لدخول الطقس . والسماء التي اراها فوق حيفا ليست تابعة لحيفا . وأنا لا احمل تصريحا للجلوس تحت السماء .

ثم تطلب منهم تصريحا للاقامة في الريح ، فيبتسمون !

[١٤]

● تحتفل بعيد ميلادك ؟

آه من الاحتفالات . يهجم عليك التاريخ بشراسة . هزيمة تلو هزيمة تلو هزيمة ، والعرب يحتفلون بكل أيامهم . وتتساءل : أيامنا تمحو أيامنا من فرط المناسبات والاعياد . لم يبق في الروزنامة يوم واحد للنصر . كل الايام محجوزة للانقلابات والانقلابات المضادة ، وكلها أعياد مقررة . عندها تجد سببا لاستمرار هزيمتك : حين يخلو أحد مقاعد السنة من يوم واحد . . سننتصر .